(١٠)

الهجرة

منطق اليقين

العدد (٣٧) محرم (١٣٨٨ هـ) مارس (١٩٦٨م)

نحن في عالم يسوده المنطق المادي، ويعد المحسوسات وما يتصل بها هي الوجود الذي لا وجود وراءه!

وجمهرة البشر أخذت تستكين لهذا التفكير، وتبني عليه سلوكها في الحياة، وفرحها أو حزنها لما يصيبها من نعماء وبأساء!

نعم، إنها تحت تأثير الدين تؤمن بما وراء المادة، وتأوي إلى هذا الإيمان في الساعات العصيبة.

بيد أن لغوب الناس على ظهر الأرض، وكدحهم لتحصيل ما يريدون إنما يثور غباره وراء ضرورات العيش ومرفهاته - أما الدار الآخرة وما يمهد لها فأمر قلما يخطر على البال، وإذا خطر فقلما يقترن بالشعور الجياش والفكر المستغرق والعزم الحديد!

وحقيقة الدين تنافي هذا المسلك الخامل، فإن الإيمان بالغيب قسيم للإيمان بالحاضر، ولا يصح تدين ما إلا إذا كان المرء مشدود الأواصر إلى ما عند الله مثلما يتعلق بما يرى ويسمع في هذه الدنيا..

والغيب الذي أقصده هنا أوسع دائرة من عالم الملائكة مثلًا، أو مشاهد الجزاء الأخروي، أو المرويات التي أنبأنا الوحي بها، ولا نستطيع الوصول إليها بمداركنا.. الغيب الذي أقصده هنا ما يتصل بالسلوك الإنساني المأنوس لنا، أي ما ننبعث عنه في كفاحنا القريب لبلوغ ما نحب وإقصاء ما نكره!

إن النصر على الأعداء غيب.. خصوصًا إذا وهنت الوسيلة، وقل العون، وفدحت العوائق.

ولكن الإيمان بهذا النصر المأمول ينبع من الإيمان بالله وحده جل شأنه، ومن ثم فالمجاهد الموقن يمضي في طريق الكفاح المر، وهو واثق من النتيجة الأخيرة!!

إن غيره يستبعدها، أو يرتاب فيها.. أما هو فمعتقد أن اختلاف الليل والنهار يقربه منها وإن طال المدى.

فإذا قال الله تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (**الروم: ٤٧**) فإن الجماعة المؤمنة لا تهولها وعثاء الطريق، وضراوة الخصوم، وكآبة الحاضر.

إن إيمانها بالمستقبل يعزيها عن متاعب اليوم، ويشعرها بأنها غيمة عارضة توشك أن تنقشع ﴿يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ﴾ (**الرعد: ١٧**) والرزق- مثل النصر- غيب مرتقب. وعندما ينفق المؤمن ما عنده على أمل أن الله باعث خلفا له وعوضا عنه، فهو يسير على منطق اليقين المحض.

ومن هنا قال رسول الله ﷺ لبلال- لما ادخر له صبرا من طعام: «أنفق يا بلال ولا تخش من ذي العرش إقلالاً»[1].

ولماذا يخشى الإقلال وقد وعد الله أن يخلف على من أنفق؟ ووعده منجز لا ريب فيه.

إن هذا الإيمان بما عند الله هو الذي يرجح عند المؤمن جانب العطاء عندما توسوس له نفسه بالإمساك والمنع، خصوصًا مع التأميل في الحياة، والرغبة في سعة الثراء، والقلق من أحداث الزمان!

---

(١) رواه البزار برقم (٢٧٣) وغيره، وهو ضعيف كما ذكر ذلك العراقي في تخريج أحاديث الإحياء.

ولذلك جاء في الحديث «أفضل الصدقة أن تتصدق وأنت صحيح شحيح تحب الغنى وتخشى الفقر»، والإيمان العميق يجعل المرء كما وصف الرسول الكريم: «أن تكون بما في يد الله أوثق منك بما في يدك».

كان المسلمون قبل الهجرة يملكون أنصبة وافرة من الإيمان بالمستقبل، يعتقدون أن دينهم لن يغلب- وإن ضعف اليوم حملته- ويؤدون فرائض الجهاد والبذل وهم راضون عن ربهم، راجون ما عنده.

والمجاهدون في سبيل الله بشر تجيش في أنفسهم المشاعر التي تجيش في نفوس غيرهم، من تقدير للحياة، والرأي العام، وكفالة الأولاد، وتأمين العيش لأنفسهم وأهليهم! بيد أنهم وازنوا بين مطالب الحق، وأشواق الدنيا، ثم آثروا وعد الله على وحي العاجلة.

وتأمل هذا الحديث الذي يصور الصراع النفسي لدى أنصار الحق، وكيف يخرجون من غباره أوفياء لله، أحقاء بكرامته، عن سبرة بن الفاكه -رضي الله عنه- قال: سمعت رسول الله ﷺ قال: «إن الشيطان قعد لابن آدم بطريق الإسلام فقال: تسلم وتذر دينك ودين آبائك؟ فعصاه، فأسلم، فغفر له! وقعد له بطريق الهجرة فقال له: تهاجر، وتذر دارك وأرضك وسماءك؟ فعصاه فهاجر، فقعد له بطريق الجهاد فقال: تجاهد وهو جهد النفس والمال، فتقاتل فتقتل، فتنكح المرأة ويقسم المال؟ فعصاه فجاهد، فقال رسول الله ﷺ: فمن فعل ذلك فمات، كان حقًا على الله أن يدخله الجنة. وإن غرق كان حقًا على الله أن يدخله الجنة. وإن وقصته دابة كان حقًا على الله أن يدخله الجنة»[1].

هذه طبيعة الاستمساك بالحق والتفاني في نصرته.

والواقع أن إيمان هؤلاء بالغيب مثل إيمان غيرهم بالمحسوس، إن الرجل

---

(١) رواه أحمد في المسند برقم (١٥٩٥٨).

الذي يقطع تذكرة للسفر من القاهرة إلى الاسكندرية لا يخامره شك في أن الاسكندرية موجودة وأن القطار المنطلق ذاهب به إليها!

والمجاهد المسلم يؤمن بأن الموت نداء الحق ينقله يقينًا إلى جنة عرضها السموات والأرض، إيماننا اليوم بأن السفر من عاصمة إلى عاصمة أو من قارة إلى أخرى يصل بنا إلى ما نريد!

وعندما يرتفع الإيمان بالغيب إلى هذه القمة الراسخة، فإن أصحابه ينتصرون بمبادئهم حتمًا وناشروها في الحياة نشرا لا يدركه طي، ومكتسحون ما يضعه المبطلون أمامهم من عوائق.

والمستقبل الذي تنتصر فيه الرسالة وينتصف فيه أصحابها يتكون من جزأين أحدهما قريب والآخر بعيد.

أما القريب ففي هذه الدنيا وعلى أرض الميدان الذي تدور فيها المعارك.. أما البعيد فعند الله حيث تنكشف خبيئات النفوس وينال المحقون والمبطلون جزاءهم العدل، وفي المرحلتين كلتيهما يقول الله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ﴾ (**القمر**: ٤٤، ٤٥، ٤٦).. وجاء في سورة أخرى ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ (**غافر**: ٥١، ٥٢).

والمسلمون الأوائل لم تنقصهم الثقة في مستقبل الدعوة التي آمنوا بها وكل ما عناهم، أن ينهضوا بحقوق الدين الذي اعتنقوه، وأن يثبتوا على صراطه المستقيم مهما تكاثرت المحن وترادفت الفتن.

من أجل ذلك هاجروا لما اقتضاهم الأمر أن يهاجروا، وخاضوا غمرات الحروب لما كلفهم الحق أن يبذلوا النفس والمال.

ولو شققت عن ضمائر القوم لوجدت الهجرة عندهم أشبه بانتقال الموظف اليوم إلى بلد اتصل فيه رزقه أو نال فيه ترقية!

غاية ما هنالك من فرق أن هذا مسلك بدت فيه بواعثه المادية التي تواضع الناس على الاحتفال بها..أما المهاجرون الأوائل فهم ينتقلون من بلد إلى بلد، إقامة لدين مضطهد، ويعاملون رب العالمين وحده حين يحلون وحين يرتحلون، ويستيقنون من رضوانه، تعبوا أم استراحوا.

إن هجرات الأحياء على ظهر الأرض كثيرة، بل إن الطيور في الأجواء، والأسماك في المحيطات تقطع مسافات كبيرة وراء غاياتها المادية المحدودة، لكن الهجرة التي علت بها أقدار، وخلد بها أقوام، تلك التي قامت ودامت ببواعث الإيمان المحض، والغضب لله والارتباط بتعاليمه، والعيش بها أو الموت دونها.

ومع أن الوحي الأعلى لقن المؤمنين أن رسالتهم ستستقر، ورايتهم ستعلو، وأن الكفر سيذوب، وينخذل حزبه، إلا أنه تملق أفئدتهم بالمستقبل البعيد، أعني الدار الآخرة وما حوت من ثواب وعقاب ﴿ فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾ أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَـٰهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾ فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴾ (**الزخرف**: ٤١، ٤٢، ٤٣، ٤٤).

ولهذه الآيات معنى ينبغي أن نقف عنده طويلًا، فإن المؤمن المجاهد قد يترك هذه الحياة دون أن يعرف نتائج الصراع المحتوم بين الهدى والضلال، وهذا جائز، بل كثير الوقوع، لأن انتصار الحق ربما اقتضى هذا المؤمن نفسه أن يقدم حياته، فيكون استشهاده، واستشهاد غيره من المؤمنين الجسر الذي تعبر عليه المبادئ وتشق طريقها إلى مستقبل وطيد.

لكن هل ذهاب عدد قل أو كثر من أهل الإيمان يفيد الضالين شيئا؟ كلا، إن الانتقام الإلهي لاحق بهم يقينا.

ولذلك يؤكد القرآن الكريم هذه الحقيقة ﴿ فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾ أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَـٰهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ﴾ (**الزخرف**: ٤١، ٤٢).

والخطة المثلى أن يؤدي الإنسان واجبه المجرد دون استعجال المصير في هذه الدنيا، وألا يتعلق بالفوز الشخصي له، أو الاندحار الشخصي لخصومه.

فمن يدري؟ ربما رشد هؤلاء الخصوم يومًا، وتحولوا إلى الإيمان الذي جحدوه من قبل!

وفي أعقاب أحد، ومع مرارة الهزيمة التي أصابت المسلمين، يبين الله لنبيه هذه الحقيقة فيقول ﴿ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ۗ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا۟ خَآئِبِينَ ﴿١٢٧﴾ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ...﴾ (**آل عمران**: ١٢٦، ١٢٧، ١٢٨).

في إطار هذا اليقين العميق، لبى المسلمون النداء إلى الهجرة عندما طولبوا بالهجرة، واستجابوا لله ورسوله غير ضائقين ولا جازعين.

إن الحياة بالنسبة إلى المؤمن خط طويل يمتد مع الزمن لا يقطعه الموت، ولا يعروه الفناء.

والمؤمنون حين يغرسون في هذه الدنيا فهم يرقبون ثمار غرسهم في المستقبل القريب، أو المستقبل البعيد، بين أهليهم هنا أو عند الله هناك.

ولن يخامرهم قنوط لأن ما ارتقبوا تأخر ميعاده.

ولن يسأموا تكاليف الجهاد ولو كلفتهم أن يحرموا وطنهم الغالي، وأن يرغموا على ترك معايشهم به وذكرياتهم فيه.